حلاوات

سيدى الرئيس.. إبتسم من فضلك

فايز حلاوة

بلا مقدمات وبلا حاجة إلى إثبات حسن النية وبدون شهادة ولاء، موقع عليها من اثنين موظفين وبغير عريضة مبايعة مكتوبة بالدم وبعيدا عن مجالات الهتاف بالروح والدم أو رفع الشعارات اسمع لى يا سيادة الرئيس أن أكتب هذا إليك.

منكورا قد تحملت النعمة وأمينا قد كنت ولا تزال. وعظيما مظفرا قد حققت النصر ولا جدال وصادقا ناديت بالحرية والديمقراطية وهذا هو محور القضية ومضمون السؤال.

أما عن الحرية فهى مسألة دلامية بل نسبية ينهمها كل إنسان حسب مشتهاه وبقدرها كل فرد حسبما يملى عليه حاله وهواه وهى بذلك مجال تضارب وتنافر واعتراك ولو أن مفهومها البسيط قد ورد على لسان الحاكى فى قصة الفوضوى الذى مد إصبعه فى وجه زميله وعلى وجه التحديد فى مواجهة أنفه. فلما طالبه دفاعا عن حريته أن يبعد إصبعه أجاب بقوله. أنا حر فرد عليه القول بأن ذلك حق ولكن حرية إصبعك تنتهى وتنعدم عندما تبدأ حرية أنفى.

وإذا أنت سألت أيا من أولئك السفلة الأوباش الذين أشعلوا الحرائق فى ١٨، ١٩ يناير فيما لا شك فيه أن إجابته ستكون «أنا حر».. ذلك أن مفهوم الحرية لديه قد انطلق إلى حدود الفرضى لكن القانون والعرف والعادات قد تولت بما لا يدع مجالا للاجتهاد أو المواربة تحديد الحدود الفاصلة بين ما هو حق وما هو اعتداء، أو بمعنى آخر حدود الحرية الشخصية والاعتداء على حرية الآخرين وقديما قالوا «الحرية بلا نظام فوضى»، «أنت حر ما لم تضر» ولقد شئت وشاءت الأقدار أن تقرر لنا مبدأ الحرية عملا لا قولا وأمرا واقعا لا شعارا وتلك قد سجلها لك التاريخ وتشكرك.

لكنى لا أعلم سببا ظاهرا لتلك الغضبة العارمة التى تنتابك سيادتكم وأشاهدها بوضوح كلما شاهدت لكم ندوة أو لقاء على شاشة التليفزيون مؤخرا. هل كانت أحداث ١٨، ١٩ أمرا مخالفا لطبائع الأشياء. أو غير متوقع؟.. هل كانت خروجا عن المألوف؟. هل كانت تشكل نكسة أخرى جديدة فى طريق المسيرة؟.. الواقع لا.. ثم لا.. أما عن كونها مخالفة لطبائع الأشياء فهذا أمر تدحضه النظريات. ففى علم الميكانيكا نظرية تقول بأن كل فعل له رد فعل. وهناك أيضا نظرية علمية تؤكد أن الضغط يولد الانفجار.. ولقد عانينا ربع قرن من الكبت والضغط وحبس الرأى. والانفجار الطائش هنا أمر تقرره طبائع الأحوال بل إنه أمر مألوف ومتوقع أو على الأصح كان يجب أن يكون متوقعا. ذلك أن المعتقلات قد لفظت شاغليها والحزب النسوعى المنحل، الذى كان يعمل تحت سطح الأرض قد وجد الفرصة الكاملة من خلال الديمقراطية لكى يقفز كالحيوان الشارد إلى السطح بل بعمل فى وضح النهار متطيا ظهر أعظم جواد شرعى فى تاريخنا المعاصر.. ألا وهو الاتحاد الاشتراكى العزيز ثم إن إنشودة اللعب على أوتار الآلام الشعبية والمعاناة اليومية وفساد الخدمات القومية وآلات التعذيب البيروقراطية قد أضحت أنشودة الموسم وكل موسم ولقد كثر العازفون واشتد عود المطربين وأصبحت اللعبة المفضوحة لركاب الموجة وحواة القفز إلى مقاعد الشهرة ولو على حساب الفضيحة المسكينة أمنا مصر العزيزة.

ولا شك أن المسئولية الأولى لتلك الموجة المزعجة تقع على أم رأس أجهزة الاعلام المتخلفة المختلفة التى نامت فى العسل نوم واستفاقت على أصوات الحرائق وقذائف الطوب ماركة سام ١٨ وسام ١٩ وكل ما هو سام ومسموم ومسم. ولوجه الحق أشهد أن الندوات المتتابعة التى أسرع التليفزيون مهرولا لعقدها كان لها أكبر الأثر فى عودة الاستقرار إلى نافوخ السادة المشاهدين وأثبتت بالدليل القاطع أن نكلا ما من أشكال المناقشات الهادئة الموضوعية كفيل بأن يصل بنا إلى الحل الأمثل دون استعمال كبريت الأمان أو توالب طوب العمال.

وعندما انزاحت الغمة جفت الأقلام ونضبت المحابر وعادت السيدة المصونة ربة إلى ممارسة عاداتها القديمة. اللهم إلا بعض الأحاديث المباشرة البلهاء التى لا يختلف اثنان على أن منعولها العكسى أمر مضمون بل أكثر ضمانا من شهادات استثمار البنك الأهلى حرف ج.

المهم هو أن أحداث يناير لم تستطع بأى حال من الأحوال أن تؤثر قيد أنملة فى مسيرة شعبنا نحو التحرر والديمقراطية وسعيا للوصول إلى حياة أفضل.

● وأسجل لك يا سيادة الرئيس بزيد الفخر أنك لم تفقد حكمتك ولا ثباتك عندما قررت أن لا رجوع عن الحرية ولا رجوع عن الديموقراطية ولا مساس بسلطان القانون. إذن فلم الغضب ولماذا؟

يقولون فى الأمثال إذا صدر العيب من أهل العيب فلا عيب ومعلوم لديك يا سيدى ولدينا أن جنرالات يناير هم صفوة أهل العيب وأذيال الامبريالية المركبة ولقد تفضلت مشكورا فخلعت عليهم وسام الحرامية من الطبقة الأولى مع مرتبة الشرف وهو تشريف ما بعده تشريف ذلك أن اللصوص وقطاع الطرق والحرامية يربأون بأنفسهم أن يوضعوا فى زكيبة واحدة مع هؤلاء الثرثارين والأوباش أبطال معركة الأزبزونا وكازينو الليل وملهى الرافعة اللولبية الست صنية. ثم إنه معلوم لدينا أيضا أن هؤلاء العملاء لا يدينون لمصرنا العزيزة بالولاء بل إنهم ليجاهرون بهذا المانيفستو المكرم الذى اعتنقوه وقدسوه وعنه قالوا نفس قولهم «أنا روسيا» ولقد تفضلت مشكورا يا سيدى فطردت أعمامهم وأخوالهم وأزواج أمهم إلى غير رجعة. وتركتهم كالبتامى بلا عم ولازوج أم ولا خال. اللهم إلا تلك الغريبة زوجة الأب التى تدعى مصر. ومن الطبيعى أن ينفسوا عن غضبهم المكبوت فى مواجهتها وعلى حساب أبنائها وبالطريقة التى درجوا عليها فى كافة البلدان.. احرق.. اضرب.. مزق.. خرب.. الهف البضائع والمعروضات اقتحم الملاهى والبارات اغتنم زجاجات الويسكى والكونياك فهى حرام ومفرغ تصيب البروليتاريا بتلبك فى الكبد تفتك بعقول الكادحين احتفظ بها لنفسك يا رفيق. وعندما تعود إلى دارك تناولها لا بأس مع قليل من المزة.. فهناك حكمة تقول: «قليل من الفودكا يلطشك ويدهلكا». المهم الهام يارفيق أن تكون ملتزما وعقائديا وصاحب مبدأ.. افعل ما بدا لك بشرط أن ترده إلى العقيدة.. وإلى المبدأ.. فهذا الويسكى من حقك إنه غنيمة تملكها بكفاحك ضد الرأسمالية المستغلة والطبقة البرجوازية العفنة إذن فهو حلال بلال.. ومن حقك أن تجنى ثمرة كفاحك ونضالك فى معركة الليبجراد.

ولو أن سوء الطالع قد أوقعنا والعياذ بالله فى حبائل تلك الثرثرة الفجرية الحاقدة.. ولولا أن عناية الله قد أحاطت بنا. لكنا نعيش اليوم أسود أيام حياتنا بل أحمرها على وجه التحديد.. وتخيل ياعزيزى أن تفتح الراديو يوما لتستمع الى برنامج ما يطلبه المستمعون:

ومن عبد المعبود جورنى الى خطيبته باتريشكا عبد العال الى الأهل والرفقاء بنيا القمح وموسكو ومن رابنا ونانيا والكسندر وناتاشا عبد الخبير إلى العم سيرجى سيدوف بمنتشق سخالطوبر المركزى إليكم هذه الأغنية العاطفية:

يا دنيا فنكى أنا باكل وانكى
ما أنا أصلى اشتراكى وحبيبى ماركسى

● أما عن الديمقراطية فلنا لقاء.. وحتى نلتقى اسمع لى يا سيادة الرئيس أن أطالبك بالابتسام. ابتسم من فضلك.. لا تغضب فهؤلاء الخوارج ليسوا من أبنائك ومن أجل هذا فهم لا يستحقون منك مجرد لحظة غضب.

رسائل خاصة

● عبد السلام البسيونى. المدينة المنورة:
نحن معا على الطريق.. اشكرك على الزجل الظريف ولكن بدلا من القبلات ابعث لى بزيد من الدعوات الصالحات.

● الدكتور فتحى حسن سند.. الدمام:
المذكور ليس مهندسا بدليل أنه لا يجيد القراءة والكتابة. وسيادتك لست محاميا. وأنا لن أرد عليك.

● فريد أبو ضيف. كلية الهندسة ـ القاهرة:
يا أخى نص كلامك زى الفل والنصف التانى زى رشك.

طبعت بمطابع دار المعارف بمصر